

## الفصل الثاني عشر

### الاتجاهات الإنسانية والنقدية

« تأملت لأوضاع الفلاحين في القرية . وكنت أفكر كثيراً في أمرهم وفي الظواهر الاجتماعية والغايات الكبرى التي خلق الإنسان من أجلها . . . وكنت لا أكف عن الصلاة والدعاء لؤلؤ التمساء . وسمعت في خدمتهم . . . » .

« تحمست للدعوة الجمية تعاونية وجمع القمامة من المسجد . وسمعت في مساعدة الضعفاء في حاجاتهم . وأدرت المصنعة لأملأ الحرض الماشية ، حتى تشرب في غيبة الناس » .

« كنت أجالس الفلاحين ولا أحاول أن أزهو عليهم . . . وحاولت نصحهم في أمور معيشتهم ، وخاصة فيما يتصل بالإسراف في تماطى المكيفات » .

« كان يحز في نفسي أن الخدم يملأون ليل نهار دون ترفيه أو معاملة عطية . وانبرت للدفاع عن الخادم في عدة مواقف ، كما منحه المال من مصروفي الخاص » .

« حاولت الاشتراك في ممركة القنال فنعني والذي . . . » .

« اشتركت مع بعض الزملاء في نادي . . . فشكلنا تقديم بعض الخدمات لفقراء الحى . » .

« وجدت أن مسجد البلدة غير صالح ، فأرسلت خطاباً إلى وزير الصحة أقول فيه إن المسجد لا يصلح من الناحية الصحية . . . وكنت أرى إلى أن تقوم الأوقاف بإصلاح المسجد فأكون المتسبب في ذلك ، ولكنني فوجئت بإغلاقه نتيجة لخطابى ، واضطرت إلى تأجيل سفرى للبلدة ، حتى لا أظهر بين أهلها مظهر العاجز . » .

« . . . ناصبنا المهمة المداء ، فقد كان طاغياً متسلطاً بشكل بالضعفاء من أهل القرية . . . وأخذنا نرفع الشكاوى ضده إلى الجهات المختصة باسم المظلومين ، ونحرض على عدم طاعته ، ولا نقف لتحتيته إذا مر بنا كما يفعل معظم أهل القرية . . . واستمر ساو كنا هذا رغم نصيح الآباء وتوجيههم ورغم تعرضنا للأخطار بسببه . وكان تشجيع معظم الأهالى — فى الخفاء — لأعمالنا ، وامتداحهم شجاعتنا ، وإحساسنا بأنا رجال من طراز آخر غير هذا الذى يرضى العسف والظلم . . . من الدواعى القوية لنا فى هذا السلوك . » .

( ملحوظة : المراهق وبعض زملائه فى هذا المثل الأخير من أقارب العمدة . بل كانوا يكتنون مشاعر الحب لابنته ) .

هذه وغيرها أمثلة لا تحصى في المرافقة نحو الخير ، والمصلح الصالح ،  
والمشاركة الوجدانية للضعفاء والتألمين ، والشهامة والفروسية ، والثورة على  
المظالم والأخطاء ، والرغبة في الإصلاح وتغيير مجرى الأمور !

ولا شك أن المراهقين لا ينفردون بمدم الرضى عن الأخطاء والمظالم  
في المجتمع ، فإن من بين الكبار الراشدين كثيرين ممن لا يرضون عنها . . .  
واسكن خبرة المراهقين الفجأة الناقصة وعدم إلامهم بالصعوبات العملية  
التي تترض الإصلاح والتعديل ، تجعلهم يعتقدون في إمكان تغيير وجه  
المجتمع بطريق الطفرة ، دون التدرج ودون أخذ الأمور بالرفق كما يفعل  
الكبار ! . . . ولذلك يلجأ المراهقون أحياناً إلى العنف أو إلى المحاولات  
الخيالية في سبيل الوصول إلى أهدافهم . وقد يدفعهم الإصرار على رأيهم  
واستمسكهم بمقيدتهم ، إلى التضحيات الجسيمة وتحمل الأذى والاضطهاد  
وإغضاب أقرب الناس إليهم . . . أما المثل الواضح على ذلك ، فقد قصته  
أحد المراهقين — فيما تقدم — عن اشتراكه وزملائه في مقاومة سلطان  
الممدة في القرية . وكان بعض هؤلاء الزملاء من أقارب المراهق ومن أقارب  
الممدة في الوقت نفسه . وقد فعلوا ذلك رغم هذه القرابة ورغم معارضة  
آبائهم ، بل رغم عاطفة الحب التي حملها بعضهم لابنة الممدة !

وايست كل محاولات المراهقين في النقد والإصلاح ، نتيجة خالصة  
لإيمان بالمثل العليا وبالقيم الإنسانية . فالواقع أن كثيراً من هذه المحاولات  
— رغم مظهرها الخارجي — متأثر لدرجة كبيرة ، بافتقاد المراهق التقدير

الاجتماعي ، وبإحجام مجتمعاته عن الاعتراف بشأنه ، أو اعتراضها على توليته مكانة بارزة فيها . . . ولذلك يسمى كثير من المراهقين إلى الاشتهار والبروز عن طريق الساولك الذي ينحدر إلى المخالفة ، أو عن طريق الظهور بمظهر بطولي يدللون به على أنهم لا ينقصوا عن الرجال — إن لم يزيدوا عنهم — في إحراز صفات النخوة والشهامة والفروسية ! . . . وقد وجدنا في الدراسة الحالية ، أن الثورة على الأوضاع الاجتماعية ومحاولة التغيير فيها ، تزداد زيادة واضحة في حالات المراهقة غير المترافقة ، وخاصة الحالات التي حرم أصحابها التقدير والمعاملة الكريمة في الأسرة والمواطن الأخرى .

ومن أمثلة الاتجاهات الاجتماعية التي تأثرت بالدوافع الذاتية الخاصة ، أن أحد المراهقين كتب لوزير الصحة بشأن إصلاح مسجد القرية ، فكان هدفه من ذلك — على حد قوله — أن يكون هو التسبب في هذا الإصلاح! وقد أوضح مراهق آخر أنه أراد أن يأتي شيئاً جديداً لم يسبقه إليه آخر في أمره ، حين قام بمحاولة لتكوين جمعية تعاونية من بين أفرادها . بل لقد لجأ مراهق ثالث إلى التدين الشديد ، في أسرة أتجهت بقيمتها عكس ذلك ، لمجرد المخالفة وإثبات ذاتيته في الأسرة ! أما المراهقون الذين ناصبوا العمدة الممداء ، فقد وصفوا أنفسهم بأنهم « رجال من طراز آخر غير هذا الذي يرضى بالمسف والظلم » . . . وهكذا كانت اتجاهات هؤلاء المراهقين وسيلة لفرض أنفسهم على مجتمعاتهم ، ولتمويض إحساساتهم بالتخلف والنقص أحياناً .

ومما يمكن أن تفسر به مشاركة بعض المراهقين الوجدانية للضعفاء  
والتألمين وتأثرهم الشديد لصور البؤس والشقاء ، أن هذه الشاعر التي  
أبدوها نحو الآخرين هي الصدى لإحساسهم الداخلي بالتماسة والحرمان . . .  
فكأنما يجانس هؤلاء المراهقون — لاشعورياً — بين أنفسهم وبين  
المهزومين المغلوبين على أمرهم في المجتمع . . من « الضعفاء » و « التمساء »  
و « الفقراء » و « المظلومين » و « الخدم » الخ ، باستخدام نفس الألفاظ  
التي وردت في عبارات المراهقين . . ويمثل هذا أيضاً إقبال بعض المراهقين  
على قراءة المأساة وقصص البؤساء والمذبذبين ، على اختلاف أنواعهم . . .  
ومما له منفاه الواضح أن أغلب المراهقين في هذه الدراسة ، ممن أبدوا مثل  
هذه المشاعر المتطرفة نحو الضعفاء والمحرومين ، هم من مراهق « الشكلي  
الثاني » الممثل للمراهقة المحرمة المنطوية ، وبعضهم من المراهقين في أشكال  
المراهقة « غير المتوافقة » الأخرى .

ولبعض المراهقين — من الممننين في سوء التكيف — شطحات  
خيالية ، يهربون بها من الواقع الفعلي الذين عجزوا عن مواجهته ، إلى  
بناء التنظيمات والتشكيلات التي تقارب صور الأحلام . . من ذلك ما يرويه  
أحد هؤلاء المراهقين عن محاولته مع زملاء له لتكوين حزب جديد ،  
أقسموا على الإصلاح له على قنة أحد الجمال ، ودعوا إليه وشرعوا له  
اللوائح والقوانين . . ثم نخذت هذه الفورة بمد قليل ا ومن ذلك أيضاً  
ما يرويه مراهق آخر من أنه سيجل في مذكراته ، الدعوة إلى دين جديد  
أسماه ( الهيولوية ) ! . . يهدف إلى التحرر الجنسي الخالي من القيود ومن

« المؤثرات الاجتماعية التخيلية » ويكون من مبادئه « أن يمش المرء سعيداً إلى الأبد » ! ودعوته هذه لا تحتاج إلى تمايق في توضيح أسبابها ! ولئن كان لبعض المراهقين ظروفهم النفسية ودواعيهم الضخامة التي تحملهم على نقد الأوضاع المحيطة بهم ومحاولة تغييرها ، فإن هناك كذلك الأسباب الأخرى ، الأهم ، في تفسير هذا المساوئ في المراهقة . ومن هذه الأسباب ، التفتح الذهني واقتراب المراهق من التفتح العقلي . فمن شأن ذلك تزايد اهتمام المراهق بالظواهر الاجتماعية التي تحيط به ، وببحث مذاهب الناس في الحياة ، والقيم الأخلاقية التي تسود المجتمع ، وسائر القضايا الدينية والسياسية والاجتماعية . ولا شك أن المراهق واجد في كثير من الأوضاع المحيطة به ما يحمله على التفكير والتأمل ، ويستدعي المناقشة والتساؤل . ولا شك أيضاً في أنه يرفض — مع ما بلغه من النمو العقلي — أن يأخذ الأمور قضية مسلمة أو أن يتقبلها تقبله السابق لها . كذلك فإن التطورات السريعة التي يمر بها النمو الجسدي والغددي في المراهقة ، تؤدي إلى الإرهاص في عواطف المراهقين وإلى حساسيتهم الانفعالية الزائدة . فتتميز المراهقة لذلك بفيض غزير من العاطفة والحساس ، وتخرج هذه العاطفة أحياناً بالتأثيرات الدينية الروحية في بيئات المراهقين ، فيتجه منها مجرى عريض نحو حب البشرية جماء ، ونحو حب الفضيلة والحق والجمال ، والتعلق بالاهتمامات الإنسانية العليا . وتزخر بكل ذلك كتابات المراهقين ، وينمكس أيضاً على ما يقرأون وما يدعون إليه ، بالقول أو بالفعل !